دور الإنسان في إعادة البناء الحضاري للعالم الإسلامي عند مالك بن نبي

The role of human in the civilized reconstruction in the Islamic world according to Malek ben Nabi

الكبار عبد العزيز

كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية – جامعة تلمسان(الجزائر)

elkebar_abdelaziz@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/12/16 **تاريخ القبول**: 2022-06-06 **تاريخ النشر**: 2022-12-31

ملخص: يتفق كثير من العلماء والمفكرين الغربيين والعرب والمسلمين أن دراسات ومؤلفات مالك بن نبي تشكل نسقا فكريا يعالج قضايا ومشكلات العالم الإسلامي، حيث يدرس فكره في معظم الجامعات العالمية، وتنجز حوله العديد من البحوث والدراسات الأكاديمية في مختلف ميادين العلوم الاجتماعية. هذا المفكر يربط العلاقة بين مختلف هذه المشكلات والقضايا التي تندرج كلها في إشكالية الحضارة، حيث يتصور أن الإنسان هو معيار الحضارة وعليه تتوقف نهضة العالم الإسلامي ويعتبر المركب الديني العنصر الرئيس في توجيهه للقيام بوظيفته الاجتماعية والتاريخية المتمثلة في إعادة البناء الحضاري للعالم الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: الإنسان؛ الدين؛ الحضارة؛ العالم الإسلامي؛ النهضة؛ التنشئة؛ الثقافة.

Abstract :

Many scholars in Europe, Arab, and Muslim agree that studies and the writings of Malek Bennabi construct intellectual beliefs that treat problems of the Islamic world. This intellectual beliefs study in most University in the world, and lead to many academic studies in social sciences. Malek Bennabi links the relationship between these various problems which fall in the area of the civilization problem. He imagines that human is the civilization standard, and the religion idea is the component of orientation, that make him do the social and historical function represented in civilization re-build of the Islamic world**.**

. **Keywords**: human; religion; civilization; the Islamic world; the renaissance; socialization; culture.

المؤلف المرسل: الكبار عبد العزيز، **الإيميل**: elkebar_abdelaziz@yahoo.fr

دور الإنسان في إعادة البناء الحضاري للعالم الإسلامي عند مالك بن نبي

1- مقدمة:

يعتبر مالك بن نبي (1905-1973) واحدا من بين أبرز المفكرين العرب والمسلمين الذين اهتموا بمسألة الحضارة حيث قام بتشخيص أسباب تخلف العالم الإسلامي وانحطاطه، واتضح له أن أزمة العالم الإسلامي ترتد إلى مجموعة من المشكلات، وقد أعطى حق السبق لمشكلة الإنسان وبين في أغلب مؤلفاته أن إنسان ما بعد الموحدين، الذي تزامن وجوده مع فترة عصر انحطاط العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي قد فقد دوره التاريخي في إحداث التغيير الاجتماعي والإسهام في عملية إعادة البناء الحضاري.

وإذا كان مالك بن نبي مقتنعا أن الإنسان عنصر وشرط أساسي وضروري في تركيب الحضارة، فكيف يحدد مالك بن نبي مفهوم الإنسان؟ و ما هي أوجهه وأشكاله المختلفة التي أفرزها إنسان ما بعد الموحدين؟ وماهي وسائل وآليات إعادة البناء الحضاري للعالم الإسلامي؟

2- مفهوم الإنسان ببعديه البيولوجي والاجتماعي:

يتطرق مالك بن نبي في أغلب مؤلفاته للإجابة عن هذه التساؤلات، حيث يحدد مفهوم الإنسان بوصفه عنصرا جوهريا في عملية التغيير الاجتماعي مرتكزا على أبعاد هذا الإنسان الكونية أو البيولوجية وأبعاده الاجتماعية، إن هذا الإنسان يتكون من معادلتين: معادلة بيولوجية وأخرى اجتماعية(مالك بن نبي،1987، ص91)

1.2 – معادلة بيولوجية : وهي معادلة قد حسم القرآن الكريم فيها، ويقصد بذلك الصورة التي خلق الله عز وجل الإنسان عليها. هذا الجانب لا يتغير في الإنسان منذ خلقه ونشأته إلى نهايته على الأرض، وتتمثل هذه الصورة في خاصية التكريم التي انفرد بها الإنسان عن باقي المخلوقات الأخرى يقول تعالى :"ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا." (سورة الإسراء / الآية:70)

هذا التكريم الذي يقره القرآن الكريم لا يخص الإنسان العربي أو المسلم، بل إنه يشمل كل إنسان مهما كان انتماؤه العرقي والثقافي والاجتماعي، والأساس الغيبي لمفهوم الإنسان لا يعني الكم، أي مجموعة أفراد مصنفين في جداول إحصائية أو جماعات موزعة و منتشرة في مؤسسات تربوية أو عسكرية أو صناعية.. بل الصفة التي قرنها الله بالتكريم في سلالة آدم. يقول مالك بن نبي في تحديده لهذه المعادلة البيولوجية " فأما المعادلة الأولى فهي موهوبة من الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم وميزه على العالمين بالتكريم، فهي منحة منه عز وجل إلى البشر كافة (مالك بن نبي،1987، ص91)

هذه النظرة التي يقدمها مالك بن نبي في تحديده لمفهوم الإنسان وعلى أساس غيبي تعد نقطة التقاء بين أغلب أعلام الفكر الإسلامي، نظرة تستمد تصورها للكون والمجتمع والإنسان من الوحي أو المنهج الإلهي، وهذا النوع من التفكير يطلق عليه في المنظومة المعرفية الإسلامية مفهوم التصور الإسلامي.

يرى ابن عربي أن الإنسان أكمل المخلوقات وأشرفها، وهذا التشريف يستشفه من قوله تعالى : " إني جاعل في الأرض خليفة " (سورة البقرة / الآية 30) ومن سنة الله عز وجل و حكمته في خلقه لآدم بيديه : " ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي " (سورة ص / الآية 75) و عندما علمه الأسماء كلها التي ما تولى بها ملائكته، وعندما أعطاه الخلافة (ابن عربي، 1990، ص08)

و يؤكد محمد إقبال (1877-1938) أن الإنسان طاقة كونية تتمثل فيها كل طاقات الوجود وقبس من القدرة الخالقة، إنه خليفة الله في الأرض وأثمن ما في الوجود كله، وذلك حين يستمد من الله، فهكذا خلقت الروح الإنسانية، أو النفس، بحيث تستمد من قوة الأزل والأبد فتشرق – وتشتعل – وتصبح طاقة كونية مريدة و فاعلة (قطب،1997، ص269).

ولا خلاف إذن، إذا قلنا إن أعلام الفكر الإسلامي يؤكدون أن الإنسان كمعادلة بيولوجية كائن مكرم وخليفة الله في الأرض خلق من تراب وارتقى بالخلق السوي إلى منزلة العقل والإرادة وتعلم من الأسماء فضلا من العلم وميزه الله عز وجل على خلائق الأرض كلها .

ولكن هناك ملاحظة هامة ينبغي أن نلفت النظر إليها قوامها أن مالك بن نبي يؤكد على أن صفة التكريم التي انفرد بها الإنسان ثابتة لا تتأثر بالظروف والتحولات الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية ... أي أن الإنسان بالنسبة للمعادلة الأولى (البيولوجية) يكون ثابتا لا يتغير فيه شيء في أي مرحلة من مراحل الدورة الحضارية ومراحل التغير الاجتماعي .

2.2– معادلة اجتماعية: ويعني بها مالك – ما ذهب إليه وأكده الفلاسفة وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا– أن الإنسان كائن اجتماعي ومدني بطبعه يكتسب من مجتمعه نسقا من القيم والمعايير الثقافية والاجتماعية ويخضع لقوانين التغير الاجتماعي، أي أن أنماطه السلوكية والفكرية تتغير من حالة إلى حالة أخرى ومن وضع إلى وضع آخر تبعا للتحولات التي تحدث على مستوى بنيات المجتمع وأنساقه.

يقول مالك بن نبي : "... إن الإنسان لا يتغير بوصفه كائنا حيا في حدود التاريخ، وإنما يتغير بوصفه كائنا اجتماعيا تغيره الظروف فإن التاريخ يعجز عن أن يغير شعرة واحدة في الإنسان ولكنه يستطيع أن يزيد أو ينقص من ميزاته الاجتماعية وفعاليته من ناحية المنطق العملي."(ابن نبي، 1991، ص 26)

هذا التصور الذي يقدمه مالك بن نبي في تحديده لمفهوم الإنسان كمعادلة بيولوجية ومعادلة اجتماعية يبرز بوضوح انتقال فكر مالك بن نبي من مجال التفسير الغيبي – الميتافيزيقي – إلى مجال التفسير الاجتماعي والنفسي لمفهوم الإنسان، وهذه الازدواجية في التفسير تكشف لنا أن شخصية الإنسان ليست بالبسيطة، وإنما هي مركبة تشتمل على عنصر ثابت يحدد كيانه إنسانا وعنصر متغير يحدد قيمته كائنا اجتماعيا.

وإذا كان مالك بن نبي قد اهتم بالإنسان الاجتماعي فلأنه أساس التغير الاجتماعي والبناء الحضاري، فهو الجهاز الاجتماعي الأول في أي حركة تغييرية : " فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ... "(ابن نبي، 1991، ص129)

ولا يتأتى للإنسان تحريك عجلة التاريخ، وتوجيه مساره والتحكم في سير أحداثه إلا من خلال التأثير في معادلته الاجتماعية القابلة للتغيير.

ولكن التساؤل الذي يفرض نفسه في هذا الاتجاه قوامه: ما هو العنصر الذي يصنع الإنسان ويجعل منه كائنا اجتماعيا مؤثرا وفاعلا في حركة التاريخ؟

يجيبنا مالك بن نبي بأن العنصر الذي يحدث هذا التأثير يتمثل في الفكرة الدينية، وفي مدى خضوع الإنسان لها، فقد أوضح هذه العلاقة العضوية وهو يرصد منحنى مسار الحضارة الإسلامية إذ يقول: " ومن المؤكد أنه عندما نتناول الحضارة الإسلامية فلابد أن يدخل في اطرادها بالضرورة عاملان هما : الفكرة الإسلامية التي هي أصل الاطراد نفسه والإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة." (ابن نبي، 1987، ص 74)

3- الإنسان: أشكال ونماذج:

لا يتوقف مالك بن نبي عند تحديد مفهوم الإنسان ككائن مكرم وكائن اجتماعي والتمييز بينهما، بل إنه يؤسس نظرته له بحسب موقعه من الحضارة، فقد اكتشف عند رصده لمراحل دورة الحضارة الإسلامية أن هذا الإنسان يتجلى في ثلاثة نماذج و أشكال هي: إنسان ما قبل الحضارة و إنسان الحضارة و إنسان ما بعد الحضارة.

1.3 إنسان ما قبل الحضارة:

هو الإنسان الطبيعي أو الفطري، الذي تحكمه غرائزه التي لم تتكيف بعد، إنه عنصر ثابت خامد محتفظ بكل طاقته الحيوية، هذا الإنسان يعد نقطة البدء في عملية التغيير الاجتماعي لأنه دائم الاستعداد للقيام بهذا الدور التغييري، إذ تتولى الفكرة الدينية إخضاع غرائزه إلى عملية شرطية، أي أن الفكرة الدينية تقوم – و بلغة التحليل النفسي – بكبت غرائزه الطبيعية دون إلغائها بصفة نهائية، هذه العملية الشرطية تقوم فقط بصقلها و تهذيبها بقواعد نظام معين."(ابن نبي، 1987، ص 75)

2.3- إنسان الحضارة:

يتموقع وجود هذا الإنسان في المرحلة التي تظهر فيها الفكرة الدينية، ويطلق عليها مالك بن نبي اصطلاح مرحلة الروح، وتمتد هذه المرحلة إلى مرحلة العقل، حيث في المرحلة الأولى تقوم الشرارة الدينية

بتشكيل وصياغة الإنسان الطبيعي (الفطري) وفق متطلبات مرحلة الحضارة من الناحية النفسية والاجتماعية، كما يتحرر جزئيا من قانون الغريزة ليمتثل لقانون الروح. هذا الإنسان المكيف المشروط يحقق التوازن بين عوالمه الثلاثة التي تشكل شبكة العلاقات الاجتماعية، وتتمثل هذه العوالم في عالم الأشخاص وعالم الأفكار وعالم الأشياء، ويتطابق دوره مع طبيعة هذه المرحلة.(خالد السعد، 1997، ص 142)

أما في مرحلة العقل نجد أن الغرائز التي قام الدين بضبطها، أي بصقلها و تهذيبها قد عادت إلى الظهور لأن العقل لم يعد يحتكم لسلطة الروح مما يجعله يفقد السيطرة على الغرائز، فتشرع نتيجة لذلك في التحرر من قيودها. هذه الغرائز لا تتحرر دفعة واحدة وإنما تتحرر تدريجيا بقدر ما تضعف سلطة الروح. وكلما واصل التاريخ سيره واصل التطور عمله في نفسية الفرد وفي البناء الأخلاقي للمجتمع الذي يكف عن تعديل سلوك الأفراد، و كلما تتحرر هذه النزعة من قيودها في المجتمع يعتل النسق الأخلاقي فيتمظهر في أفعال وسلوكيات الأفراد، و بالتالي فالإنسان الذي دخل دورة الحضارة شخصا متزنا متكيفا قد تحول إلى إنسان خارج الحضارة.

3.3– إنسان ما بعد الحضارة:

يطلق عليه مالك بن نبي صفة (إنسان ما بعد الموحدين): تزامن مع فترة عصر انحطاط العالم الإسلامي أو مرحلة الغريزة التي تعبر عن مرحلة تفسخ شبكة العلاقات الاجتماعية، إذ يفقد فيها هذا الإنسان فاعليته لاجتماعية فتظهر عليه أعراض المرحلة التي يعيش فيها كالاعتماد على الغير واللامبالاة و التمركز حول الذات.. و تتمثل الأعراض الخطيرة التي يصاب بها إنسان ما بعد الموحدين في القابلية للاستعمار.

ولكن هذا النموذج الاجتماعي الجديد الذي خلف إنسان الحضارة الإسلامية، والذي يحمل في كيانه جميع الجراثيم المترتبة عنها في فترات متفرقة جميع المشاكل، التي تعرض لها العالم الإسلامي، لم يفقد عقيدته بل بقي مسلما فاقدا تأثيرها الاجتماعي، وقد أكد مالك بن نبي على ضرورة البدء في تغيير هذا الإنسان لإنجاح التغيير الاجتماعي ليس عن طريق تعليمه عقيدة يمتلكها من حيث المبدأ، بل بتغيير ذاته

وصفاته وسلوكياته، وأن نعيد إليه فعاليته الروحية إذ يقول:" و طالما ظل مجتمعنا عاجزا عن تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون، ومادام متقاعسا عن تجديد كيان الإنسان طبقا للتعاليم الإسلامية الحقة ومناهج العلم الحديثة، فإن سعيه إلى توازن جديد لتاريخه سيكون باطلا عديم الجدوى" (ابن نبي،1986، ص 37)

يتصور مالك بن نبي أن معظم الأخطاء التي أعاقت طريق النهضة في العالم الإسلامي ترجع إلى عدم الاهتمام بواقع إنسان ما بعد الموحدين مع أنه العنصر الأساس، الذي يعيق عملية البناء الحضاري في العالم الإسلامي، وللتوضيح يمكن أن نحدد ثلاثة ملامح لإنسان ما بعد الموحدين، وقد تجلت في مرحلة النهضة الحديثة في العالم الإسلامي وتتمثل في:

رجل المدينة و رجل الفطرة (البادية) ومحترف الثقافة.

أ- رجل المدينة: هو رجل الندرة والقلة في كل شيء، تغلغلت في نفسه دواعي الانحطاط... يحمل روح الهزيمة بين جوانحه وهو دائما في منتصف الطريق، وفي منتصف الفكرة، وفي منتصف تطور، لا يعرف كيف يصل إلى الهدف، إذ هو ليس نقطة الانطلاق كرجل الفطرة ولا نقطة الانتهاء كرجل الحضارة بل هو " رجل النصف " مسخ فكرة الإصلاح نصف فكرة وأطلق عليها اسم السياسة، لأنه لم يكن مستعدا إلا لنصف جهد ونصف اجتهاد ونصف طريق.

ب- رجل الفطرة: هو رجل البادية، راع بلا مواش، فلاح بلا محراث ولا أرض، يرضى من الأشياء بالعدم ولكنه يبقى محتفظا بقدرته على الدخول في دورة الحضارة.

ج- محترف الثقافة: و هو الذي يصفه مالك بن نبي بالمتعالم أو المتعاقل الذي يسخر كل شيء في المجتمع لمصلحته، ويستعمل كل الوسائل ليبقى في أعلى المراتب والمراكز الاجتماعية وهو لأنانيته يحرص على البقاء في صدر المجتمع، هذا الحرفي يطلق عليه مالك بن نبي صفة "الصبي المزمن"، أي الذي لا يتدرج في طريق التعلم كالصبي، و إنما هو مصاب بداء عضال أبقاه في مرحلته الصبيانية.(ابن نبي،1987،ص 90)

دور الإنسان في إعادة البناء الحضاري للعالم الإسلامي عند مالك بن نبي

يرى مالك بن نبي أن النمطين الأولين يمكن القيام بتعديل وإصلاح أفكارهما، والاتجاه نحوهما بالرعاية ليصبحا رجلين نافعين في بناء الحضارة، أما النمط الثالث فإنه يمثل ظاهرة باثولوجية (مرضية) في جسم الأمة وخطره لا يقل عن خطر الفقر والجهل، بل إن هذين الخطرين يمكن علاجهما ولكن محترف الثقافة (المتعالم) لا علاج له، لذا يلح مالك بن نبي بضرورة استئصاله وإزالته ليصفو الجو للطالب العاقل الجاد.

4- التغير الاجتماعي بين عند مالك بن نبي و جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده:

يعد مفهوم الإنسان عنصرا بنيويا في المنظومة الفكرية عند مالك بن نبي، حيث هيمن على جل مؤلفاته وكتاباته واعتبره أول منطلق لبناء مشروع حضاري، ولكن لابد ونحن نتحدث عن الإنسان- كما يتصوره مالك بن نبي- أن نشير إلى ذلك النقاش العميق الذي خاضه مع جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده تحديدا، حيث يجمع هذا النقاش بين الاتفاق تارة والخلاف تارة أخرى.

وإذا استطعنا الكشف عن ملامح هذا النقاش، والحسم في نظرة المصلحين الثلاثة حول منهج التغيير وأولياته وبيان نقاط الاتفاق والخلاف نتمكن عندئذ من بيان ومعرفة المسار الفكري الذي اتخذه فكر مالك بن نبي في تحديده لمفهوم الإنسان ودوره في التغيير الاجتماعي و إعادة البناء الحضاري.

تكمن نقاط الاتفاق بين مالك بن نبي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في انتمائهم لنموذج فكري ومعرفي واحد ومشترك يتمثل في ارتكازهم على التصور الإسلامي، أي أنهم يمثلون امتدادا للمدرسة الإسلامية التي ترتكز في تصورها للكون والإنسان وللمجتمع على القرآن والسنة النبوية الشريفة، وانشغلوا كلهم بفكرة الإصلاح والتغيير، وكيفيات بناء حضارة إسلامية، وتتضح نقاط الخلاف على مستوى المنهج والرؤية.

هذا الخلاف يمكننا من رصد التجاوز الذي أحدثه مالك بن نبي مع الشيخين الأفغاني ومحمد عبده، والذي يعبر في حقيقة الأمر عن قفزة نوعية في فكر مالك بن نبي ورؤية جديدة ومغايرة تتجلى في طرح أولوية الرأسمال البشري من حيث بنائه وتشكيله وصياغته، وتأهيله للقيام بوظيفته المتمثلة في التغيير

الاجتماعي والبناء الحضاري. إن الإشكال الذي يفرض نفسه علينا في هذا الاتجاه قوامه: أين تكمن هذه القطيعة وهذا التجاوز مع الحركة الإصلاحية الإسلامية ؟

1.4– تجاوز فكرة الإصلاح السياسي عند جمال الدين الأفغاني:

يرى مالك بن نبي أن منهج الأفغاني في الإصلاح قد سعى إلى مقاومة أنظمة الحكم السائدة في عصره وإعادة بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي، كما أنه كافح المذاهب الفلسفية وخاصة التيارات المادية والطبيعية.

لقد كان العالم الإسلامي يعاني من الفرقة والشتات فتصور الأفغاني أن الوحدة الإسلامية أساس قوته، فضل طول حياته ينهض بهذه الدعوة، وينادي بضرورتها في كل مناسبة، وفي كل مكان يحل به، فأنشأ " جمعية أم القرى" وهو في مكة، وألف جماعة " العروة الوثقى" وهو في باريس من مسلمي الهند ومصر وشمال إفريقيا وسوريا، وأصدر بالاشتراك مع محمد عبده مجلة " العروة الوثقى" لسانا لحالها وتعبيرا عن أغراضها، وكان هدفها وحدة المسلمين، وإنقاذهم من سباتهم، وتنبيههم إلى المخاطر التي كانت تهددهم، وإرشادهم إلى سبيل مواجهتها والتغلب عليها.(عبد اللطيف، د. سنة، ص 105)

وقد أجمع الباحثون على أن منهج التغيير في فكر الأفغاني على العنف الثوري، حيث كان يعتقد أن الثورة السياسية أسرع الطرق في تحرير الشعوب الإسلامية، أما الاعتماد على التعليم أو المنهج التربوي فكان يراه بطيئا جدا ولا يحقق أهدافه المنشودة.(طهاري، 1992، ص132)

يشير مالك بن نبي في تقييمه لمنهج الإصلاح السياسي عند الأفغاني إلى محاسنه، ومواطن الخلل فيه، فلقد كان الأفغاني مجاهدا ذا مزاج حاد يمتلك ثقافة فريدة، وكان منهجه الإصلاحي يهدف للرد على الطبيعيين وبيان تهافتهم، وإليه يرجع الفضل في إيقاظ العالم الإسلامي من سباته وجهله وتخلفه. يقول مالك بن نبي:"... لقد كان قبل كل شيء مجاهدا، ولم تكن ثقافته النادرة سوى وسيلة جدلية، مهما هبطت أحيانا إلى مستوى الجماهير، فأصبحت وسيلة نشاط ثوري. لقد كان لهذا النشاط أهمية نفسية وأدبية أكثر من أن تكون له أهمية سياسية في العصر الذي كان يعيش فيه، حين كان العالم الإسلامي

غارقا في خمول شامل وكان من فائدة هذا النشاط أنه فجر المأساة الإسلامية في الضمير المسلم ذاته". (ابن نبي، 1986، ص 51)

ويبدو أن جوهر الخلاف بين مالك بن نبي والأفغاني قد تجلى في أنه إذا كان الأفغاني يتصور أن نهضة الأمة الإسلامية لا تتأتى إلا بإصلاح سياسي يتخذ من الثورة أسلوبا لتحقيق هذا المقصد، فإن منهج مالك بن نبي في الإصلاح يستهدف أولا تغيير الإنسان الذي صاغه عصر ما بعد الموحدين.

نعتقد أننا قد أوضحنا التجاوز الذي أحدثه مالك بن نبي مع الإصلاح السياسي عند الأفغاني لننتقل إلى التجاوز الذي أحدثه مع الإصلاح الاجتماعي عند محمد عبده لنبرز أوجه الاتفاق وأوجه الخلاف بينهما.

2.4- القطيعة مع الإصلاح الاجتماعي عند محمد عبده:

كان محمد عبده في بداية حياته مندفعا وراء التيار السياسي حيث شارك في الثورة العرابية سنة 1882، وبعد فشل هذه الثورة قبض عليه وسجن وحكم عليه بالنفي إلى بيروت، ومنها دعاه جمال الدين الأفغاني إلى باريس حيث أسسا بها جريدة العروى الوثقى، ولكن يبدو أن محمد عبده لم يكن مقتنعا بالإصلاح السياسي الذي نادى به الأفغاني، هذه القناعة قد تجلت وبخاصة بعد فشل الثورة العرابية، لذا اتخذ وجهة مغايرة في الإصلاح تمثلت في الإصلاح الاجتماعي.

تصوّر محمد عبده أن الإصلاح الاجتماعي من أنجع السبل لإنقاذ العالم الإسلامي من تخلفه وفقره وسوء حاله، ويقوم هذا الإصلاح على ترشيد العقل بتثقيفه وتهذيبه وتحريره من الخرافات والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر، كما أوضح أن انعتاق الشعوب وتحررها من الاستعمار تأتي كمرحلة لاحقة لأن العلم- على حد تعبيره- عماد الاستقلال وأساس المدنية الحديثة.(أمين، 1990، ص 55)

فإذا كان الأفغاني قد نظر إلى المأساة الإسلامية من زاوية سياسية، فإن محمد عبده قد وصفها بأنها مشكلة اجتماعية، والخطوة الأولى التي ارتكز عليها في مشروعه الإصلاحي تمثلت في إصلاح الفرد،

وقد استمد هذا المنهج من النص القرآني في قوله تعالى:" إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ.[سورة الرعد/ الآية: 11]

اعتقد محمد عبده في منهجه الإصلاحي أن تغيير الفرد لا يتأتى إلا بإصلاح علم الكلام، وإعادة بناء عقيدة الإنسان المسلم وترسيخها، ولكن إذا كان محمد عبده ومالك بن نبي قد أعطيا حق السبق في تغيير الفرد فإن مالك يعترض على أن يكون هذا التغيير من زاوية إصلاح علم الكلام لأنه – وعلى حد تعبير مالك بن نبي – علم الكلام هو علم الاعتقاد لا يهتم بدراسة الوظيفة الاجتماعية للدين. يقول مالك بن نبي:" علم الكلام لا يتصل في الواقع بمشكلة النفس إلا في ميدان العقيدة أو المبدأ والمسلم حتى المسلم ما بعد الموحدين لم يتخل عن عقيدته فلقد ظل مؤمنا– وبعبارة أدق– ظل مؤمنا متدينا ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي فأصبحت جذبية فردية وصار إيمان فرد متحلل من صلاته بالوسط الاجتماعي: وعليه فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، ولكن المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي، وفي كلمة واحدة: إن مشكلتنا ليست في أن (نبرهن) للمسلم على وجود الله بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة."(ابن نبي، 1986، ص 53)

ونلخص من هذا القول إنه إذا كان محمد عبده يرى أن مشكلة الإنسان المسلم مشكلة عقدية، فإن مالك بن نبي يتصورها مشكلة اجتماعية وحضارية، وعلى هذا الأساس، يرى مالك بن نبي أن مشكلة إصلاح الفرد ليست مرتبطة بعلم الكلام، بل إن المشكلة تتجلى عنده في تأثير العقيدة على سلوك الفرد وجعله سلوكا اجتماعيا مؤثرا وفاعلا في المجتمع، فالعلاقة إذا هي علاقة تكامل بين الدافع الداخلي الديني والسلوك الاجتماعي وعليه يبين مالك بن نبي المنهج الحقيقي للإصلاح في قوله:"... يهدف الإصلاح إلى توفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب تلك الجماهير المتعطشة إلى انتفاضة القلب كي تنتصر على ما أصابها من جمود."(ابن نبي، 1986، ص 54)

وعلى ضوء رصد مالك بن نبي لمنهج الإصلاح بشقيه السياسي والاجتماعي عند الأفغاني ومحمد عبده، وبيان حدوده المعرفية، يصل في نهاية المطاف إلى إحداث التجاوز كما سبق أن أوضحنا وإلى بناء تصور جديد يمنح فيه للإنسان مكانة هامة، ويعتبره حجر الزاوية في التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري.

5– دور التنشئة الاجتماعية في صياغة الإنسان وإعادة البناء الحضاري:

تعتبر التنشئة الاجتماعية في مجال علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا عملية اجتماعية مستمرة تهدف إلى تشكيل وصياغة النموذج الاجتماعي المتمثل في المواطن العصري والعقلاني، الذي يشكل حجر الزاوية في بناء المشروع الاجتماعي، حيث كشفت التجارب التنموية في العالم العربي والإسلامي فشلها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي ... واتضح لها أن هذه التجارب قد أغفلت دور الإنسان وأهميته في إنجاحها، وأن نهضة الأمم والشعوب تقوم أولا: بتكوين الرأسمال البشري وثانيا: بإنتاج الرأسمال المفاهيمي، أي عالم الأفكار.

كان مالك بن نبي من بين أبرز المفكرين في العالم العربي والإسلامي الذين أشاروا في كتاباتهم إلى دور الإنسان في عملية التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري، حيث قام بنقد طروحات جمال الدين الأفغاني وطرقه وأهدافه، وأسس نظرية معرفية جديدة ومحمد عبده حول مفهوم الإصلاح من حيث منطلقاته على دور التنشئة الاجتماعية في تغيير الإنسان وتمكينه من عملية البناء الحضاري. تعتمد في منطلقاتها

يتصور مالك بن نبي أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه يكتسب من مجتمعه نسقا من القيم والمعايير الثقافية والاجتماعية، ويخضع لقوانين التغير الاجتماعي، أي أن أنماطه السلوكية والفكرية تتغير من حالة إلى حالة أخرى، ومن وضع إلى وضع آخر تبعا للتحولات التي تحدث على مستوى بنيات المجتمع وأصعدته. يقول مالك بن نبي:"...إن الإنسان لا يتغير بوصفه كائنا حيا في حدود التاريخ، وإنما يتغير بوصفه كائنا اجتماعيا تغيره الظروف، فإن التاريخ يعجز عن أن يغير شعرة واحدة في الإنسان، ولكنه يستطيع أن يزيد أو ينقص من ميزاته الاجتماعية، وفعاليته من ناحية المنطق العملي."(ابن نبي، 1991، ص 26)

لا يستهدف منهج التغيير عند مالك بن نبي الإنسان بصفته كائنا طبيعيا خلقه الله ووضع فيه تكريمه، هذا الكائن لا تمسه يد التاريخ بتغيير، وإنها التغيير يمس الإنسان بصفته كائن اجتماعي، وهي التي تكون ميزة الفاعلية فيه تعلي من قيمته الاجتماعية في ظروف معينة.

تعتبر التنشئة الاجتماعية عند مالك بن نبي أسلوبا للضبط الاجتماعي، و عملية اجتماعية ونفسية تسهم في صناعة الإنسان وتنمية وعيه وضبط سلوكه، فهي تعمل على تكيفه وتحقيق توازنه النفسي والاجتماعي، غير أن هذا التغيير لا ينزل وحيا من السماء، وليس هبة من الطبيعة ولا يجده الإنسان جاهزا في مجتمعه، بل إنه فعل إرادي يحدثه الإنسان على ذاته يمنحه القدرة على التغيير الاجتماعي، ويستمد مالك بن نبي هذا التصور من النص القرآني : "إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ" (سورة الرعد الآية: 11) والتنشئة الاجتماعية عند مالك بن نبي وسيلة لنقل كل العناصر والنماذج الثقافية الفاعلة في المجتمع لذلك تصور أن الثقافة نظام اجتماعي و تربوي يحدد أسلوب حضارة، ويمنحها القدرة على الإبداع والاستمرارية، وتعتبر التنشئة الاجتماعية وسيلة لنقل الثقافة بمكوناتها المادية والمعنوية لأفراد المجتمع في مؤسسات التنشئة الاجتماعية المختلفة، فالثقافة من هذه الزاوية نظام تربوي تحدده الشروط أو المبادئ الأربعة التالية: المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي والمنطق العلمي والعلم أو الصناعة، يقول مالك بن نبي: "فلو أننا حللنا واقعا اجتماعيا، وأعني نشاطا اجتماعيا محسا فسنجد فيه على الفور وفي حالته الراهنة أو في اطراد تطوره أربعة عناصر أساسية يمكن أن نطلق عليها، المنهج الأخلاقي والذوق الجمالي والصناعة والمنطق العملي فكل واقع اجتماعي وكل ناتج حضارة هو في جوهره مركب من هذه العناصر الأربعة."(ابن نبي،1991،ص 27 فماذا يقصد مالك بن نبي بهذه الشروط أو المبادئ الأربعة؟ و كيف تسهم من حيث كونها نظاما تربويا في عملية التغير الاجتماعي والبناء الحضاري؟

1.5 المبدأ الأخلاقي:

تعتبر الأخلاق من الموضوعات الأساسية التي عنى بها فلاسفة وفقهاء المسلمين بالبحث في مقاييس الخير والشر، وتكلم عدد من رجال الشرع في شروط المسؤولية، غير أن هذه الجهود كلها، والتي لا

دور الإنسان في إعادة البناء الحضاري للعالم الإسلامي عند مالك بن نبي

يمكن أن ننكر قيمتها كانت تعبيرا إما عن رأي شخصي أو عن اتجاه المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها صاحب النظرية، ولم يكن التدليل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إلا لغرض تدعيم هذا الاتجاه أو ذاك.

واختلفت مدارس الفكر الغربي وتعددت تصوراته حول مصدر ووظيفة الأخلاق في حياة الفرد والمجتمع، إذ نجد المدرسة العقلانية و المدرسة الدوركيهمية والمدرسة الوجودية والمدرسة الماركسية ومدرسة التحليل النفسي...

تقوم نظرة ملك بن نبي في تحديدها لمفهوم الأخلاق على نفس المرجعية التي يرتكز عليها كل أقطاب المدرسة الإسلامية كالغزالي وابن تيمية وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال... وهذه المرجعية تتمثل في الوحي، أي أن الأخلاق الإسلامية تستمد عناصر قوتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. يقول مالك بن نبي:" هذه الروح الخلقية منحة من السماء إلى الأرض، تأتيها مع نزول الأديان عندما تولد الحضارات ومهمتها في المجتمع ربط الأفراد بعضهم ببعض.(ابن نبي، 1987، ص 94)

يقوم المبدأ الاخلاقي عند مالك بن نبي ببناء شبكة العلاقات الاجتماعية ، أي بتشكيل عالم الأشخاص لذلك نلاحظ أن مالك بن نبي قد ركز على البعد الاجتماعي للأخلاق فاهتم بالوظيفة الاجتماعية لسلوك الفرد وإسهاماته الفاعلة في عملية البناء الحضاري.

يمثل المبدأ الأخلاقي الإسمنت الذي يقوم وبالضبط ببناء عالم الأشخاص، ويجعل من الإنسان كائنا اجتماعيا، وهو الذي يحدد للثقافة خصوصياتها يقول مالك بن نبي:" والحقيقة الأولى التي تتبادر إلى أذهاننا هي أن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع إلا إذا شملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبطا بهذا الأسلوب، فلا يحدث فيه نشوزا بسلوكه الخاص. ونحن إذا دققنا في هذا العنصر فإننا نرى أنه لا بد أن يكون خلقيا فإذا قررنا وجود هذا العنصر بوصفه ضرورة منطقية اجتماعية فإننا نكون بهذا قد وضعنا فصلا من فصول الثقافة وحققنا شرطا أساسيا من شروطها وهو المبدأ الأخلاقي.(ابن نبي، 1991، ص 148)

يرى مالك بن نبي أن المبدأ الأخلاقي يعد شرطا هاما من شروط فعالية الفرد والمجتمع غير أنه ليس كافيا ولا تتم وظيفته الحضارية إلا بتوفر عناصر أخرى تتكامل وتتفاعل معه، وتتمثل هذه العناصر وهي شروط الفعالية في المبدأ الجمالي والمنطق العملي والعلم أو الصناعة _على حد تعبير ابن خلدون_.

2.5–المبدأ الجمالي:

يبحث علم الجمال في مسائل الجمال والبشاعة بوجوهها الإبداعية والنقدية والنظرية ويتناول كيفية إبداع الفنانين لمنتجاتهم وظروف ذلك، وكيف يتذوق الناس هذه الأعمال الفنية، وكيف يشعرون بإزائها، وكيف يثمنون تلك الأعمال، وإلى الآثار التي يتركها تذوق تلك الأعمال الفنية في أفكار الناس وفي مشاعرهم وفي حياتهم اليومية. هذه الجوانب الإبداعية والنقدية تستشير قضايا نظرية تشكل الجانب النظري في علم المجال. (نوكس،1985، ص 13)

تقوم نظرة مالك بن نبي للجمال على تحديد أبعاده ووظائفه النفسية والاجتماعية، فالجمال يعتبر عنصرا هاما من عناصر التغير الاجتماعي ووسيلة من وسائل عملية إعادة البناء الحضاري وهو الذي يجعل ثقافة ما متميزة عن الثقافات الأخرى، وهو العنصر الذي يصوغ صورة المبدأ الأخلاقي، أي أن المبدأ الأخلاقي لا يؤدي وظيفته في البناء الثقافي والاجتماعي والحضاري إلا بتوفر عنصر الجمال.

يقول مالك بن نبي: "الأساس الثاني الذي تقوم عليه الثقافة هو ذوق الجمال الذي يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص فهو يضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام ألوانا وأشكالا. فإذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته."(ابن نبي، 1991، ص150)

يعرف مالك بن نبي الجمال بأنه كل ما يتذوقه الإنسان في حياته اليومية من موسيقى وما يرتديه من ألبسة وما يمارسه من عادات وتقاليد ويشمل أيضا طريقة تنظيم البيوت وأساليب الضحك ومسح الأحذية وتطهير البدن وتزين المحيط.. ويركز أساسا على وظيفته التربوية والاجتماعية والحضارية، ويعد ذوق

الجمال من أهم العناصر الديناميكية في الثقافة لأنه يحرك الهمم ويحقق شرطا من أهم شروط الفعالية، كما يعتبره المنبع الذي تنبع منه الأفكار وتصدر عنه بواسطة تلك الأفكار أعمال الفرد في المجتمع.

إن الإنسان كائن اجتماعي يتفاعل مع ما ينتجه مجتمعه من صور جميلة أو قبيحة، وعلى أساسها يعبر إما عن انسجامه وتكيفه، وإما عن عدم توازنه مع محيطه الاجتماعي، فالصور القبيحة تولد انطباعا نفسيا قبيحا لأن القبح الذي تمتاز به بعض الأشياء يؤثر على الفرد، ويجعله ينفر منها لأنه يتألم لما يبدو له من نقصان فضيع، فهي أشياء تشعر الفرد بوجوده يتناقض حالة اصطدامه بها، والمجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة تجعل الفرد يعاني من حالات التشاؤم والتذمر والإحباط، والصور الجميلة تدفع بالإنسان إلى الخلق والإبداع والتفنن في الأعمال والرغبة في الإنتاج، وبالتالي فالأفكار انعكاس للمحيط الاجتماعي ونتاج له يقول مالك بن نبي: "فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال يوحي للإنسان بأفكاره، ويطبعها بطابعها الخاص من الذوق الجميل أو السماحة القبيحة."(ابن نبي، 1987، ص 98)

وهكذا فإن المجتمعات المتحضرة تولي أهمية كبيرة للجمال لأنه مقياس تخلف أو تطور المجتمع، وعلامة على تحضره يقول بن نبي:" إن الجمال هو وجه الوطن في العالم فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا، ونفرض احترامنا على جيراننا الذين ندين لهم بالاحترام نفسه.(ابن نبي، 1987، ص 101)

لا يمكن للمبدأ الجمالي أن يقوم بوظيفة التغير الاجتماعي والبناء الحضاري إلا إذا كان له ضابطه الذي يحدد غاياته وأهدافه، هذا الضابط يتمثل في المبدأ الأخلاقي لأن كل مجتمع ينتج مهما تكن درجة تطوره قيما أخلاقية وجمالية نلتمسها في عاداته وتقاليده وأعرافه، أي في أسلوب حياته، فقد اعتبر مالك بن نبي المبدأ الأخلاقي والمبدأ الجمالي من القوانين التي يخضع لها نشاط المجتمع، وتقوم عليه حضارته يقول مالك بن نبي:" إن هناك على الخصوص صلة بين المبدأ الأخلاقي وذوق الجمال، تكون في الواقع علاقة عضوية ذات أهمية اجتماعية كبيرة، إذ أنها تحدد طابع الثقافة كله واتجاه الحضارة حينما تضع هذا الطابع الخاص على أسلوب الحياة في المجتمع وعلى سلوك الأفراد فيه."(ابن نبي، 1990، ص 108)

ويمكن على حد- تعبير مالك بن نبي- أن نصوغ هذه العلاقة في صورة جبرية مفادها:

مبدأ أخلاقي+ مبدأ جمالي= اتجاه حضارة.

3.5 المنطق العملي:

يعد المنطق العملي شرطا هاما من شروط فعالية الفرد والمجتمع ويعرفه مالك بن نبي بأنه:" كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى نستسهل أو نستصعب شيئا بغير مقياس يستمد معاييره من واقع الوسط الاجتماعي وما يشتمل عليه من إمكانيات إنه ليس من الصعب على الفرد المسلم أن يصوغ مقياسا نظريا يستنتج به نتائج من مقدمات محددة غير أنه من النادر جدا أن نعرف المنطق العملي أي استخراج أقصى ما يمكن من الفوائد من وسائل معينة.(ابن نبي، 1987، ص 102)

لقد تردد مفهوم المنطق العملي في النظرية الماركسية والنظرية البراغماتية، إذ يتخذ في النظرية الماركسية معنى الممارسة أو الفعل الانساني.

ويتخذ في النظرية البراغماتية معنى البراغما وهي كلمة يونانية الأصل يقصد بها العمل، إذ ترى هذه النظرية أنه إذا ثبت أن اعتقادا ما ينفع عمليا فهو صادق، فقانون الجاذبية مثلا قد أكد الواقع صحته وبالتالي فهو اعتقاد صحيح ونتائجه نافعة يقول وليام جيمس:" الصحيح هو ما يتفق وأفكارنا، مثلما أن الحقيقي هو ما يتفق وظروفنا العملية اتفاقا مستمرا بالطبع ويسري على كل جانب."(جود،1981،ص 91)

استمد مالك بن نبي مفهوم المنطق العملي من القرآن الكريم ومن ملاحظاته التي استهدفت أسلوب حياة الإنسان الفرنسي، ويتجلى المنطق العملي في القرآن الكريم في قوله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون." [سورة الصف الآية: 2- 3]

لاحظ مالك بن نبي أن الإنسان المسلم لا يجسد أفكاره على أرضية الواقع الاجتماعي، وأن سلوكه يتسم بالجمود والكسل والفتور وتضييع الوقت... فتحولت هذه السلوكات إلى ظواهر اجتماعية مرضية لأنها تفتقد لعنصر العمل وغاياته. هذا العمل الذي يحول الفكرة إلى ممارسة ميدانية. يقول مالك بن نبي"

إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقا لمبادئ القرآن، و مع ذلك فمن الصواب أن نقول: إنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي."(ابن نبي، 1987، ص103)

وقد تبين لمالك بن نبي أن سلوك الإنسان الفرنسي يتميز بالفعالية والجدية والحركة والنشاط، بينما يتميز سلوك الإنسان الجزائري بالشلل والعقم والجمود إذ يقول على ضوء هذه المقارنة:" يقال أحيانا أن الشعب الفرنسي ذو دعابة، هوايته ترقيع الأشياء وضعها لنفسه، بما لديه من وسائل، والواقع أن الفرنسي، ما إن يخرج من مكتبه أو مصرفه حتى يصير في بيته نجارا وحدادا وكهربائيا ومصلح أقفال ومفاتيح، فتراه يدق أو يخرم ثقبا في حائط، فلعله بذلك يصنع شيئا بكلفة أكثر من ثمنه لو اشتراه جديدا، أو كلف به صاحب المهنة، ولكنه يبرهن بذلك على أنه رجل الحضارة التكنية التي تحلل الذرة وترسل الصواريخ. ولريب أن الأطفال ينشئون في هذا الاتجاه منذ صغرهم، إن الهدية الأولى التي تقدمها لهم الأسرة لعب الميكانو. يقابل ذلك أنه في الجزائر على سبيل المثال وفي الفترة التي نتحدث عنها، لا يجد رجل الريف في بيته إذا أراد إصلاح آلة محراثه للحرث، مطرقة ولا مسمارا ولا قطعة سلك بينما يتسلى رجل الحاضرة بلعب الدومينو والأوراق."(ابن نبي، 1984، ص221)

4.5 العلم أو الصناعة:

يقصد مالك بن نبي بالعلم أو الصناعة بانه كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم، وقد استمد هذا المفهوم من العلامة ابن خلدون الذي اعتبر التعليم، واللغة والغناء والوراقة والطب والخط والكتابة والحياكة والخياطة.. من الصنائع، يقول بن خلدون:" اعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة الأعمال المتداولة في العمران فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد إلا من خلال ما هو ضروري في العمران أو شريف الموضع فنخصها بالذكر ونترك ما سر لها فأما الضروري فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والخياطة أما الشريفة بالموضع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب."(ابن خلدون، 1989، ص 405)

يرى مالك بن نبي أن الصناعة شرط هام من شروط فعالية الفرد والمجتمع وعنصر بنيوي في تركيب الثقافة وبدونها تفقد الثقافة وظيفتها، حيث تمثل التربية أو التنشئة الاجتماعية وسيلتها في بث تلك الشروط،

وتعمل على تغيير صفات الفرد، وتحويله من كائن طبيعي إلى كائن اجتماعي ترتكز عليه عملية التغير الاجتماعي والبناء الحضاري إذ يقول:" فالمبدأ الأخلاقي وذوق الجمال والمنطق العملي لا تكون وحدها شيئا من الأشياء إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه والعلم أو الصناعة حسب تعبير بن خلدون يكون عنصرا هاما في الثقافة لا يتم بدونه تركيبها ومعناها. فهو إذا عنصرها الرابع."(ابن نبي، 1991، ص 151)

وقد حث على تربية الأفراد وتوجيههم توجيها فنيا لإكسابهم حرفا ومهنا مختلفة، ولعله كان يشير إلى أن استقرار المجتمع وتطوره مرتبط بضرورة التقسيم الاجتماعي للعمل الذي يتطلب التخصص في الوظائف المهنية في عملية الإنتاج المادي. ويهدف التوجيه الفني والصناعي عند مالك بن نبي إلى خلق مهن وحرف:" تتيح لرجل الفطرة ورجل القلة (المدينة) أن يلجا معا باب الحضارة التي بدأت فعلا تشرق علينا شمسها، ونحن واقفون على مفترق الأقدار وفي مهب الأهواء والمبادئ، وشعوبنا قلقة لا تعرف لنفسها طريقا.(ابن نبي، 1987، ص104)

تهتم الشعوب المتحضرة بالمهن وتخصص لها مدارس ومعاهد عليا تكون أفردا أكفاء يتقنون هذه المهن والحرف، فقد لاحظ مالك بن نبي أن حرفة الرعي مثلا لها قيمتها الاجتماعية في أوربا وفي فرنسا بمدينة "رامبوليه" في ضواحي باريس، حيث يتخرج الرعاة من مدارسها، ولو أجرينا مقارنة بين راع عربي وراع فرنسي، وكيف يقود كل منهما قطيعه لعلمنا أي فرق بينهما. (ابن نبي، 1969، ص 126)

يؤكد مالك بن نبي في نظريته للثقافة من حيث كونها نظام تربوي ونسق من الشروط التي تتميز بفعاليتها ودورها في التغير الاجتماعي و البناء الحضاري ارتكازها على أمرين اثنين هما:(ابن نبي، 1987، ص 112)

– ضرورة مراعاة ترتيب شروط فعالية الثقافة والحفاظ على توازنها لأن أي خلل يحدث في هذه العلاقات فإنه قد ينتهي في آخر المطاف إلى خلل في توازن الحضارة وفي كيانها.

– توجيه الثقافة فهو: قوة في الأساس في السير ووحدة في الهدف.. وتجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت.

6– الخاتمة :

ينتمي مالك بن نبي للمدرسة الإسلامية الإصلاحية، وقد أحدث تجاوزا معرفيا مع أعلامها ومفكريها حيث أعطى الأولوية للإنسان في عملية التغير الاجتماعي والبناء الحضاري، واتخذ من الثقافة نظاما تربويا تتشكل من مبادئ أربعة متكاملة ومتفاعلة وهي: الأخلاق والجمال والمنطق العملي والعلم، وقد ساهم في هذا التجاوز المعرفي تكوينه العلمي في مجال العلوم البحتة واطلاعه الواسع على الدراسات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسيكولوجية الغربية، وإلمامه بالفكر الإسلامي الكلاسيكي والحديث، واعتماده على تفسير النص القرآني والسني تفسيرا اجتماعيا.

و إذا كان ابن خلدون فيلسوف الحضارة الإسلامية الأول ومن بين أبرز المفكرين الذين أسسوا رؤية علمية لمفهوم الحضارة ويتضح ذلك في مقدمته الشهيرة، فإن مالك بن نبي يعتبر بدون شك مفكرا إسلاميا عنى من بعده بالفكر الحضاري. لقد تصور مالك بن نبي أن مشكلة انحطاط العالم الإسلامي مرتبطة أساسا بمشكلة الإنسان. هذا الإنسان يعد العنصر الحاسم في تشكل الحضارات بتأثير من الفكرة الدينية التي تصوغ شخصيته وتدفع به إلى إحداث التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري.

إن عملية التغيير الاجتماعي والبناء الحضاري عند مالك بن نبي أمر ممكن إذا أتخذت الثقافة كنظام تربوي ومنهج في التغيير، وبالتالي فإن ظاهرة الانحطاط والتخلف في العالم الإسلامي يمكن تجاوزها إذا أحدث الإنسان تغييرا على ذاته، و يستمد هذه النظرة من القرآن الكريم .يقول تعالى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم." (سورة الرعد: الآية: 11)

وعلى هذا الأساس فإن ظاهرة الانحطاط عند مالك بن نبي ليست حتمية تاريخية كما اعتقد بن خلدون وأسوا لد شبنغلر و أرنو لد توينبي الذين طغت عليهم النزعة التشاؤمية، بل إن الحضارات يمكن لها أن تنهض من جديد إذا توفرت شروط هذه النهضة متمثلة أساسا في الإنسان، وقدرته على استثمار الوقت والتراب، ويعبر مالك بن نبي عن ذلك في معادلته الشهيرة: إنسان + وقت + تراب = حضارة

7- قائمة المصادر و المراجع:

- القرآن الكريم.

1- ابن نبي، مالك، (1987)، المسلم في عالم الاقتصاد (ط3)، دار الفكر، دمشق.
2- ابن نبي، مالك، (1991)، تأملات (ط5)، دار الفكر، دمشق.
3- ابن نبي، مالك، (1987). شروط النهضة، (شاهين عبد الصبور، ترجمة؛ ط2)، دار الفكر، دمشق.
4- ابن نبي، مالك، (1986)، وجهة العالم الإسلامي، (شاهين عبد الصبور، ترجمة)، دار الفكر، دمشق.
5- ابن نبي، مالك، (1984)، مذكرات شاهد القرن، (ط2)، دار الفكر، دمشق.
6- ابن نبي، مالك، (1969)، مشكلة الثقافة، (شاهين عبد الصبور، ترجمة؛ ط2)، دار الفكر، دمشق.
7- ابن خلدون، عبد الرحمن، (1987)، المقدمة، (ط7)، دار القلم، بيروت.
8- ابن عربي، محي الدين، (1990)، فصوص الحكم، موفم للنشر، الجزائر.
9- قطب، محمد، (1997)، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت.
10- خالد السعد، نورة، (1997)، التغير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي. دراسة في بناء النظرية الاجتماعية (ط1)، دار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية.
11- عبد اللطيف، محمد فهمي، (د س)، جمال الدين الأفغاني و الوحدة الإسلامية. مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت.
12- طهاري، محمد، (1992)، مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده (ط2)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
13- أمين، أحمد، (1990)، زعماء الإصلاح، موفم للنشر، الجزائر.
14- نوكس، أ، (1985)، النظريات الجمالية، كانت، هيجل، شوبنهاور، (شيا محمد شفيق، ترجمة؛ ط1)، منشورات بحسون الثقافية.
15- جود، س ي، (1981)، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، (شيا محمد شفيق، ترجمة؛ ط1)، مؤسسة نوفل، بيروت.